وبعض لريض القوم أولاد علة يكدّ لسان الناطق المتحفّظ (١)

وقال أبو العاصي : وأنشدني في ذلك أبو الهيذام الرياحي :

وشعر كبعر الكبش فرّق بينه لسانٌ دعسي في القريض دخيل

فالمقبول : اذا كان الشعر مستكرها وكانت الفاظ البيت من الشعر لايقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين اولاد العلّات. واذا كانت الكلمة ليس موقعها الى جنب أختها مرّتباً مسوّقا كان على اللسان عند انشاد ذلك الشعر مؤونة .

قال : وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الاجزاء سهل المخارج ، فتعلم بذلك انه قد أفرغ افراغا واحداً ،وسبك سبكا واحدا ، فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان .

ولما قوله : «كبعر الكبش » فانما ذهب الى أن بعر الكبش يقع متفرقا غير مؤتلف ولا متجاور ، وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة ملسا وليّنة للعاطف سهلة ، وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان وتكده ، والاخرى تراها سهلة ليّنة ورطبة مرانية ، سلسة النظام خفيفة على اللسان حتى كأنّ البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد » (٢) .

وروى أن اللفظ كما لا ينبغي أن يكون عاميا وساقطا سوقيا ، فكذلك لاينبغي أن يكون غريبا وحشيا الا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا ، فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي (٣) .

لقد اهتم الجاحظ بالالفاظ اهتماما عظيما وأولاها عناية كبيرة ، وقد دفعه هذا الاهتمام الى أن يقول : «والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي

(١) أولاد علة : هم بنو رجل واحد من أمهات شتى .
(٢) البيان ج ١ ص ٦٦.
(٣) ينظر البيان ج ١ ص ١٤٤.

والبدوي والقروي والمدني ، وانما الشأن في اقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير» (١) ؟

وظن بعض الباحثين أنه يميل الى اللفظ كل الميل ، وأنه لا يرى للمعنى كبير أهمية ، والواقع انه حيّ باللفظ وأعطاه نصيبه من الاهتمام ، وشُغل بالمعنى والتصوير الادبي الذي يقول عنه : «فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير » و وهذه نظريته التي شرحها عبد القاهر الجرجاني وسماها « نظرية النظم » ، فالجاحظ اهتم بالالفاظ والمعاني والتصوير مع انه يرى أن بعضهم لايخل الا بالمعنى وحده كأبي عمرو الشيباني الذي يرى أن المعنى متى كان رائعاً حسنا ظل كذلك في أية عبارة وضع فالبيتان :

لاتحسبنّ الموتَ موتَ البلى فانّما الموتُ سؤالُ الرجال
كلاهما مَوْتٌ ولكنّ ذا أفظعُ من ذاك لذلّ السؤال

استحسنهما أبو عمرو على حين ليست عليهما مسحة من جمال سوى الوزن ؛ وعابه الجاحظ ورأى أنه مسرف في تقديرهما ، وقال : «وأنا رأيت أبا عمرو الشيباني وقد بلغ من اجتهاده لهذين البيتين ونحن في المسجد يوم الجمعة أن كلّف رجلا حتى أحضره دواة وقرطاسا حتى كتبهما له ، وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبـداً ، ولولا أن أدخل في الحكم بعض الشك لزعمت أنّ ابنه لا يقول شعراً أبداً » (٢) .

لقد اهتم الجاحظ باللفظ ولكنه لم يهمل المعنى ، ولذلك فليس صحيحا مانسب اليه بعضهم وهو أنّ الجاحظ كرّس جهوده لخدمة الالفاظ ، ولاجله غاض عبد القاهر الجرجاني غمار هذا البحث: ويرى الدكتور محمد مندور أن كل آرا عبد القاهر تنحصر في مسألتين:

(١) الحيوان ج ٣ ص ١٣١.
(٢) الحيوان ج٣ ص ١٣١ .